



عودة الهامش في الخطاب الروائي العرقي
-رواية حمام الذهب أنموذجا-

The Return of the Margin in Ethnic Narrative Discourse -
The Novel 'Hamam al-Dhahab' as a Model

بن يوسف إيمان ، عبد الحق مجيطة

مخبر اللغة وتحليل الخطاب

¹ جامعة جيجل 18000- (الجزائر)، imane.benyoucef@univ-jijel.dz

² جامعة جيجل 18000- (الجزائر)، abdelhak.medjiten@univ-jijel.dz

ملخص:

تروم هذه الورقة البحثية الوقوف على مكان من ثقافة الهامش في الخطاب الروائي، فخطاب الهامش يجتمع في المكان الذي يشغله التفرد والاختلاف وهذا بتعبيره عما في حياة العامة من قيم ومعايير خاصة بهم قد تخالف معايير الثقافة المركزية، فتهدف هذه الورقة البحثية إلى الكشف عن تمظهرات الهامش وتقصي مسألة تحديد الهوية كتيمة متعلقة بالأقلية اليهودية في تونس، وذلك من خلال رواية "حمام الذهب" للروائي التونسي محمد عيسى المؤدب، والذي اتخذ من الأسطورة مكونا سرديا تقوم عليه الرواية إلى جانب الواقع، وهذا على مستوى الشخصيات والأحداث والأماكن

كلمات مفتاحية: أدب الهامش، أدب المركز، النظرية ما بعد الكولونيالية، أدب الأقليات، الأقلية اليهودية.

Summary:

This research paper explores the cultural dynamics of the margins within ethnic narrative discourse, where the discourse of the margin converges in spaces characterized by uniqueness and difference. This is expressed through the life values and standards of the general populace that may conflict with the norms of mainstream culture. Specifically, the paper aims to unveil the manifestations of the margin and to investigate the issue of identity determination related to the Jewish minority in Tunisia. This

exploration is conducted through the Tunisian novel " The Golden Bath " by Mohamed Issa Al-Moaddeb, who incorporates mythology as a narrative element alongside reality, manifested through the characters, events, and settings.

Keywords: Marginal Literature, Mainstream Literature, Postcolonial Theory, Minority Literature, Jewish Minority

1. مقدمة :

تدخل الرواية الحديثة معترك التجريب وذلك في الخوض في مسائل المهمشين والهوية، حيث انتقل الروائيون في أعمالهم إلى الحديث عن الفئات المهمشة ومرجعياتها وثقافتها، وضم الهامش إلى أنساق الكتابة الأدبية هو توجه بارز في الرواية العربية التي تحاول تجاوز الخط الرسي وهدم المؤلف منها، وبالتالي يمكن اعتبار خطاب الهامش مجالا مفتوح السرد، يحاول معاكسة الخطاب المركزي، ومراوغة أنساقه، من خلال تصوير الواقع المتري، ومحاولة تبني مشاغل الناس في مناطق الظل والأنحاء المقصية .

وتأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على الأقلية اليهودية في تونس التي عايشت الحرمان والترحيل والظلم، وموقف التعاطف مع هذه الأقلية باعتبارهم أناسا يعيشون معهم في نفس البلاد، دون اعتبار للديانة في إطار الإنسانية والتعايش الحضاري.

ومن هذا تنبثق الإشكالية التالية: كيف تجلى خطاب الهامش في رواية حمام الذهب من خلال أحداث الرواية وشخصياتها وأماكنها؟

أولاً: - ضبط مصطلحات البحث:

من المسلم أن الدراسات الحديثة تقتضي من أي باحث يطمح أن تكون دراسته قائمة على منهجه الانطلاق من تحديد المصطلحات عملا بالمقولة الشهيرة " مفاتيح العلوم مصطلحاتها:

1. النظرية ما بعد الكولونيالية: Postcolonial Theory

والتي يترجمها البعض " ما بعد الاستعمارية "، " ما بعد البنيوية "، " ما بعد الحداثة " وهي مصطلحات تشير إلى حقل الدراسات الثقافية انتقلا إلى حقل السياسة والفلسفة والتاريخ إلى الأدب والنقد الأدبي.

وقد تعددت تعريفاتها ومن أهمها أنها:

- "تستخدم لتغطية كل ثقافة تأثرت بالعملية الامبريالية منذ اللحظة الكولونيالية إلى يومنا هذا، ويعود هذا الاستخدام إلى استمرار الانشغالات طوال العملية التاريخية التي بدأت بالعدوان الامبريالي الأوروبي"¹

-تسعى هذه النظرية إلى فضح وتعرية الميتولوجيا البيضاء وتقويض مقولات المركزية، وتهميش الثقافة الغربية، والدفاع عن الهوية الوطنية والقومية، وتفكيك الخطاب الاستعماري.

2. الأدب المركزي: Mainstream Literature

وهو ذلك النوع من الأدب الذي يخدم الفئات الاجتماعية التي تتمتع بمستوى عال من الثروة والنفوذ، تشمل غالباً الرؤساء التنفيذيين، والمسؤولين الحكوميين، والمهنيين الناجحين، وأعضاء العائلات الثرية، لذلك هو دائماً محتفى به لدرجة تقسيده، ولهذا يعدونه النموذج المكتمل لا لأنه يقدر على التعبير بشكل مثالي ومتقن.

فهناك من يرى أنه "الأدب البلاطي، وأدب يشتغل بحياة الترف التي يحياها الخاصة من الساسة ورجال الدين"²، وأنه الأدب الرسمي المتداول.

3. -الأدب الهامشي: Marginal Literature

يعد الأدب الهامشي من المفاهيم التي أفرزها النقاد والباحثون واللغويون خلال ستينات القرن الماضي، حيث شاع تعبير أدب الهامش شيوعاً واسعاً بانتشار مصطلح الهامش، حيث يقول حسين بحراوي "أدب الهامش هو كل أدب ينتج خارج المؤسسة سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو أكاديمية"³

فأدب الهامش أدب لا يخضع للرقابة المؤسسية؛ لأنه لا يتماشى والنماذج والأنساق المألوفة، فهو كل أدب خرج عن نمط وأسلوب الكتابة الشائعة، والخروج عن القوانين، وعدم احترام القيود، وبذلك انطلقوا من فرضية أن الأدب الهامشي هو كل أدب ينتج خارج المؤسسة، وتعتبره الأنماط الأدبية التقليدية قائماً على استقطاب القراء ذوي الميول «الانقلابية» واستفزاز الرقابة والمؤسسات الرسمية.

ويعرف أيضاً "الأدب الذي لا يستطيع التلون، ولا يرغب في انتهاز الفرص ويعين على رفع الظلم عن المظلومين، ويكرس نفسه لخدمة قضايا الإنسان، من حيث هو إنسان ويسعى لمساعدة المحرومين والضعفاء، ويرفض السائد، ويثور عليه وعلى نظمه، بل ويدعو أحياناً إلى هدم المركز وتجاوزه، فالفئة المبدعة في هذه الحالة متجاوزة لعصرها، متمردة على أعرافه، يبشر بتيار مناقض للسائد، يعزز روحاً توافقة لفعل الجديد "⁴، فهو بهذا أدب محلي متمرد على السلطة والمركز والعادات والتقاليد.

4. الأقليات: minority

لقد تعددت وتباينت تعريفات الأقليات باختلاف الفئات والأشخاص التي تقترحه: أنها "أقلية عددية من سكان إقليم أو دولة ما تخالف أغلبية سكانها في الانتماء العرقي أو اللغوي أو الديني"⁵

بمعنى آخر: هي تلك الجماعات التي لها أصل عرقي أو ديني أو لغوي أو هوية تختلف عن بقية الدولة التي تعيش فيها وتحرص على بقاء هذا الاختلاف. وهذا ما قدمه "فرانشيسكو كوبورتوني" (Francesco capotorti) أستاذ القانون الدولي لجامعة روما سنة 1979 م: "أنها مجموعة تمثل أقلية عددية مع باقي سكان الدولة في وضعية غير سائدة، وغير مسيطرة، يملك أعضاؤها المنتمون للدولة مميزات من الناحية العرقية، الدينية، أو اللغوية مختلفة عن خصائص باقي السكان ويظهرون ولو بصفة ضمنية شعورا بالتضامن من أجل المحافظة على ثقافتهم، عاداتهم، دينهم أو لغتهم".⁶

ويمكن القول إن الأقليات هي مجموعة تشترك في الخصائص العرقية والدينية واللغوية أو الثقافية مرتبطة بمشاعر التضامن والوحدة قصد ترسيخ الهوية والحفاظ عليها وتحقيق أهدافهم ومصالحهم.

5. أدب الأقليات: Minority Literature

"هو ليس أدب أقلية، وإنما بالأحرى الأدب الذي تصنعه أقلية ضمن اللغة الرئيسية"⁷ ويسعون من خلال هذا المصطلح إلى تعيين فئة أدبية متميزة يعرفونها بالأدب الأقل، ذلك أن مفردة "أقلية" لا تشير إلى آداب بعينها، وإنما إلى الشروط الثورية لكل أدب في صميم ما يسمى الأدب الكبير أو السائد، وحتى بالنسبة للذي جعله حظه السيئ ينشأ في بلد يتمتع بأدب عظيم عليه الكتابة بلغته، وهو ما يعرف بأدب المجموعات الصغيرة أو الأدب الصغير، حيث يقدم أدب الأقليات طرائق جديدة لحل رموز الواقع، ومساءلة طرق التمثيل، والإشارة اللغوية المتبعة.

- لا يصاغ أدب الأقليات بلغة الأقلية، فهو بالأحرى ذلك الرداء الجديد الذي تحيكه الأقلية من قماش الأغلبية، فلا يكثر بالفرد وصراعاته النفسية يقدر ما يكثر بالمشكلات المجتمعية التي تلمس الجماعات المهمشة.

6. العرق: ethnicity

وهي كلمة مشتقة من الكلمة اليونانية (ethnos) والتي تعني شعب أو أمة أو جنس، تستخدم للإشارة إلى أي جماعة بشرية، يشترك أفرادها في الأصل والملامح الجسدية إضافة إلى التقاليد واللغة والدين⁸؛ أي هو مفهوم يستخدم في تصنيف البشر إلى مجموعات، تدعى أعراق أو مجموعات عرقية، استناداً إلى تركيبات من الصفات البدنية المشتركة، السلف، وعلم الوراثة، اللغة، المجتمع، الثقافة أو الأمة.

ويمكن تعريفها أيضاً بأنها فئة متميزة من السكان تعيش في مجتمع أكبر لها ثقافتها المتميزة تشعر بذاتيتها ويتلاحم أفرادها معاً، إما بروابط السلالة، العرق، القومية، الثقافة، وهم يعيشون داخل إطار حضاري مختلف عن الإطار الحضاري والثقافي السائد، غير أنهم يظلون مختلفين بتميزهم الثقافي.

ثانياً- الهامش في الخطاب الروائي:

إن الاحتفاء بالمختلف والمغاير يمكن الباحثين من استدعاء الهامش والأقلية إلى ساحات التفكير، فتحويل الهامش إلى الأدب هو توجه بارز في الرواية التي تحاول تجاوز الخط الرسمي ومعاكسة خطابه، وهذا ما أوردته النظرية ما بعد الكولونيالية التي ظهرت فيها أدبيات ودراسات تختص بقضايا وصوت الهامش.

- لقد عملت الرواية التي اشتغلت على تلك الفئة المستبعدة على فضح وتعرية ما هو مسكوت عنه، ورد الاعتبار لها وذلك بزحزحة المركز أو إلغائه وخلق المختلف، وبالتالي فقد اشتغلت عبر سيرورتها على قضايا ترتبط بالهوية والأنا والهامش، وعلى إثرها يفصح الكاتب أنه تجاوز المؤلف إلى المختلف.

وتظهر خطابات الهامش والأقليات أهمية كبيرة في فترات الأزمة، وفي ظروف التغيير الذي يشهده العالم الثالث تظهر خطابات متنوعة وأصوات روائية متعددة الانتماءات الفكرية والإيديولوجية، حيث واكب شيوع مصطلح أدب المهمشين، والتفات الروائيين للطبقات المهمشة وجعلها موضوعاً للسرد الروائي ظهور دراسات كثيرة لعلماء الاجتماع يبحثون فيها عن نتائج فكرة التهميش وأسباب انتشارها⁹.

فالسرد الذي يتناول وضعيات المهمشين سواء كان بالإقصاء والاستبعاد على أساس العرق أو الدين أو البنية الاجتماعية، قد حاول أن يكشف عن خصوصية هذه البيئات،

ويوضح تهميشها من قبل المركز، ولعل الطرح الروائي لهذا اللون من الكتابة، يحمل في طياته إشكاليات الواقع، ورسم ظواهره بكل ما يحمل من وقائع وتأزمات يعمد فيها الكاتب على المكان والشخصيات، والرؤية الاجتماعية المطروحة عبر تجربة الواقع والمسكوت عنه¹⁰ وهذا ما يتيح إنتاج التعدد في علاماته من جهة، وتوجه القارئ نحو الكشف عن المعنى المركزي.

وبذلك الكاتب حين يمارس حقه في التعبير عن أفكاره في خدمة مصالحه، ومعالجة همومه، تتأثر لغته، وتصبح في الكلام دلالات غير معبر عنها تدرك دون علاقة واضحة.

ثالثا - فاعلية الهامش وتقويض المركز في الخطاب الروائي:

الحديث عن ثقافة الهامش هو في الواقع الحديث عن الخرق والتجاوز لكل ما يدعي المركزية، فخطاب الهامش لا يرضى بكل ما هو مستهلك من المعاني، وبالتالي ارتبط بمنطق التحرر من هيمنة خطاب المركز. فبعد أن كان يُنظر إلى المركز على أنه كل شيء في النص، وما الهامش إلا مضیعة للوقت والجهد، ليتم النهوض بعد ذلك على رؤية جديدة، وهي أن المركز مسار بعيد كل البعد عن مقومات القراءة الجمالية، والتي تتمرد على المألوف من خلال مسالك وطرح أفكار ممنوعة من التناول والتداول.

" فمركزية الهامش وهامشية المركز هو في الواقع حديث عن تحول كبير في مسار الفكر التفكيكي، وجينالوجيا الإبداع، عموما ذلك أن الانتقال إلى المركز هو في الواقع جراحة فكرية، بات يمارسها الناقد لبحث ويحفر في الزوايا المظلمة في النص الأدبي أو الروائي"¹¹، وهذا كون الهامش أصبح صورة من صور النهضة الفكرية التي تفرض منطق التشكيك والمساءلات، إذ ليس هناك حرب لخطوط حمراء أو شيء مقدس بل كل الأفكار موضوعة على طاولة التشريح والنقد، ولقد جاءت ثقافة الهامش لتكون صدمة للنقد والأدب فيصبح كل مفهوم تحديدي قابل للتفكيك لتسقط أقنعة الحقيقة ولا يبقى إلا الوهم.

وهذا ما أقرته النظرية التفكيكية عند "جاك ديريدا" التي تعد من مجموعة النظريات الأدبية والنقدية التي رافقت مرحلة ما بعد الحداثة، والتي تهدف إلى تحرير الإنسان من عالم الأساطير، وتعرية المركزية في صميم مبادئها الميتافيزيقية والعقلانية والعرقية،¹² ذلك أن الغرب له وجود وعقلانية فريدة من نوعها، إذ لا يفعل إلا بذاته، ولا يشعر أنه بحاجة إلى ما هو خارج عن كيانه الخاص"، وقد أطلق عليها اسم "التقويضية" أي تقويض الميتافيزيقا الغربية وهز المسلمات والمنطق الذي تقوم عليه، وهذا وفق استراتيجية

تعتمد على إعادة المفاهيم المفككة إلى أصولها الفلسفية، لتكشف عن قصورها وعجزها عن الخروج من الإطار المفاهيمي السائد.

رابعا - ملخص الرواية:

رواية حمام الذهب رواية تجمع بين الخرافة والواقع يفوح منها عبق الماضي، ويحوك لنا الراوي قصة عشق بين "سعد" و"هيلين"، وقد فرقت العادات والتقاليد واختلاف الدين بينهما، ومن قلب الرواية تتفرع شرايين حكايات متعددة عن حارة اليهود وعن الجيوش الألمانية النازية التي حرقت الأخضر واليابس، ونهبت الديار، وشردت الأطفال الذين ذنبهم الوحيد أنهم يهود؛ هؤلاء الذي هربوا من إسبانيا بعد قمعهم وقهرهم، واستقروا في أرجاء المغرب العربي خاصة في تونس ناحية سيدي محرز، واتخذت هذه الرواية من الأسطورة مكناسرديا فحكاية "حمام الذهب" مستوحاة من الموروث الشعبي والتي تدور حول أم أخذت ابنتها إلى حمام سيدي محرز في تونس، وبينما المرأة وابنتها تستحمان ترى تلك المرأة سبائك الذهب في قاع الحمام، فأخذت المرأة تنزل ابنتها إلى قاع الحمام عن طريق فتحة لإخراجها، وبينما كانت الصبية تعطي والدتها سبائك الذهب رأت جان أحمر، وأنه سوف يأخذها وأن فتحة الحمام بدأت تغلق تدريجيا، لكن الأم الجشعة لم تهتم لما تقوله، وتتلطف للحصول على الذهب أكثر وأكثر، إلى أن أطبق الحمام على جسد الصبية ولم يترك سوى شعرها، والذي كان كل أسبوع يظهر في الوقت الذي وقعت فيه الحادثة، وأن هذا الحمام أصبح يبتلع الصبايا، لهذا سموه "مبتلع الصبايا"، ومن خلال هذه الأسطورة حمام الذهب لم يستقبل النساء منذ أكثر من 400 سنة وأصبح مقتصرًا على الرجال، وعند وصول هذه الأسطورة إلى مسامع "هيلين" الفتاة اليهودية بطلة الرواية، أخذت تبحث عن حقيقتها، وساعدها تخصصها في قسم التاريخ، وهوسها بنهب الآثار، وكذلك استعانتها بـ "سعد" بطل الرواية ذلك الفتى المسلم الذي يلقب بـ "صائد الكنوز" والذي تثق فيه كثيرا، فبدأوا بالبحث والتنقيب رفقة "جوهر" أيضا، وبالفعل تمكنوا من اكتشاف مخطوطات ووثائق في فتحة ذلك الحمام، وتحمست هيلين كثيرا لذلك وأرادت النزول، لكن سعد منعها، ومع إصرارها الشديد تنزل وتضع رجلها داخل تلك الحفرة فينفجر الأنبوب وتنزل الرمال، وتسقط هيلين ويختفي أثرها تحت تلك الرمال، فالتاريخ يكرر نفسه من جديد، ويتأكد تاريخ اليهود المهمش في تونس، واستطاعت هيلين فك شيفرات متعلقة بتاريخ أجدادها في تونس.

وتقول الرواية أن اليهود التونسيين جزء لا يتجزأ من نسيج المجتمع التونسي ولا شأن لأي اعتبار ديني أو لغوي أو عادات أو تقاليد، وبذلك أنارت صفحات التسامح والأخوة بين التونسيين فلا يفصل بين الأشخاص لا الدين ولا اللون ولا اللغة ولا المذهب، فهم ألوان مختلفة تجمعهم أرض واحدة وتظللهم سماء تونس، فقد فرقت الرواية بين اليهودي والصهيوني؛ فاليهودية ديانة سماوية أما الصهيونية انتماء سياسي متطرف، وعملت الرواية على ملامسة " المهمش " والسكان في أماكن الظل؛ الجزء المنسي غير المتلفت إليه وهم "الأقليات في تونس" أتهمهم الوحيد الاختلاف، الظلم يأتيهم من كل جهة لأنهم يهود .

فرواية حمام الذهب رحلة في الهوية التونسية المتشعبة بحاضرها وماضيها، بخرافتها وحقائقها.

خامسا - تمظهرات خطاب الأقليات في رواية حمام الذهب:

سعى الروائي محمد عيسى المؤدب في روايته حمام الذهب إلى كتابة رحلة وتاريخ مهمش ومسكوت عنه؛ اخفاء الأقلية اليهودية لذاكرتها في الأرض التي بني عليها حمام الذهب والمحركة النازية ضد هؤلاء الأقلية في تونس بعي الحارة، وهذا بأسلوب سلس وأحداث مشوقة كما لم يفعلها المؤرخون، وتعد لمسة وفاء لمواطنين يشاركونهم نفس الجنسية والرقعة وبالتالي من حقهم مقاسمة الحقوق ذاتها.

ويظهر خطاب الأقليات من خلال الشخصيات والأحداث والأمكنة المتواجدة في

الرواية:

● الشخصيات:

تعد الشخصية مكونا هاما من مكونات الإبداع الروائي، وهي المسؤولة عن تسيير الحدث عبر مساره السردي، ورواية حمام الذهب ل " محمد عيسى المؤدب " من الروايات التي ركزت على شخصيات الأقلية اليهودية في ظل الأغلبية المسلمة.

- الشخصيات من الديانة الإسلامية:

سعد: وهو البطل أي الفتى المسلم من الرواية الواقعية منقب الآثار والكنوز يدرس بقسم الآداب تخصص تاريخ.

حبيبة: وهي البطلة من الرواية الخيالية أي (الأسطورة) الفتاة المسلمة وأول صبية تكتشف الذهب المدفون رفقة والدتها الجشعة، والتي ضحت بها في سبيل ذلك الجشع.

منجية: والددة سعد والتي تترجم الوجدان الشعبي في فكرتها ونظرتها لليهود، وارتباطها بالعبادات والتقاليد ومعارضة العلاقة بين سعد وحبيبته اليهودية. شلبية: والددة حبيبة في الحكاية الأسطورية داخل الرواية تعتبر مثالا للجشع والإهمال على حساب فلذة كبدها.

الشخصيات من الأقلية اليهودية:

هيلين: تعد هذه الشخصية الأكثر ظهوراً وحضوراً، حيث طغت على النص السردي وأثرت في الشخصيات الأخرى، وكانت حاضرة في أغلب المواقف السردية، وهي الفتاة اليهودية التي تدرس بتونس في تخصص التاريخ بقسم الآداب، وتهدف إلى نبش التاريخ وفهم مسألة جذور أجدادها اليهودي، وفك لغز الأسطورة المتداولة حول حكاية "حمام الذهب" بمساعدتها صديقها المسلم سعد، وتتخذ هيلين مثال للفئة اليهودية التي ترفض كل الأفعال الخسيسة، متسامحة ومتصالحة مع الجميع بغض النظر على الديانة. حيث تقول في الرواية "ليست بالضرورة أن يكون اليهود جواسيس وقتلة، لابد من التمييز بين اليهودية كديانة، وبين الصهيونية وهي كيان غاضب" ¹³

أتون: الشاب اليهودي البطل في الأسطورة (الحكاية الخرافية) يشتغل في فرن الحمام والذي جمعه علاقة حب مع حبيبة الفتاة المسلمة حيث أنه يعد الفتى الماكن قليل الحياء، حيث يقول الراوي عنه "قاده الفضول ذات مساء وهو في حالة سكر إلى اكتشاف تلك الجلبة المنبعثة من الحمام، ولما صعد إلى السطح اكتشف فتحة صغيرة تطل على بيت السخون، فرك عينيه وظل يسترق النظر..." ¹⁴

سيمون: (أب هيلين): الرجل اليهودي الذي كان رمزا للتضامن اليهودي بصفاته الحميدة والتي جعلته يظهر في صورة طيبة كما أثنت إليف عنه أنه علمهم كيف يتضامنون ويحبون بعضهم البعض.

جوهر: اليهودي المغترب في تونس، مزدوج الهوية الذي يتساءل دائما حول هويته والمحافظة عليها يقول "كنت في حالة قلق وحيرة وكل يوم أطالب نفسي بأن أحسم أمر هويتي...."

إيزاك: الشاب اليهودي الخبيث والطائش الذي ينوي الشر لهيلين حيث تذكر عنه أنه بعد ثلاث أيام من رحيل إليف عاد إيزاك إلى مطاردها بضاوأة أشد وعنف أكبر.

فقد جمع محمد عيسى المؤدب في روايته بين شخصيات من ديانات مختلفة (الإسلامية واليهودية) وركز على علاقة الود والحب القائمة بينهما، سواء في الحكاية الواقعية - علاقة سعد وهيلين- أو الخرافية - حبيبة وأتون - .

● الأحداث:

الزمن في هذه الرواية ينطلق ما بين فترة اليهود من إيطاليا لاجئين إلى تونس، أي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وينتهي إلى حدود 15 سبتمبر 2010 مضمنا استنتاجا ناتجا عن رصد حالات نفسية واجتماعية تجمع كلها على انتفاضة 17 ديسمبر ومراكمة وقائع لكل الصور المجتمعية والعرقية التي رصدتها الرواية بعيدا عن كل تلاوين البلاغة، وتدور أحداثها في حي شعبي بتونس وتناول أقلية يهودية في تونس، أخفت كل ما بحوزتها من وثائق ومخطوطات، ورحلة البحث عن كنز الذهب، في "حمام الصبايا"، ومن أهم الأحداث الحاضرة في الرواية:

_ أنه يستحضر من خلال أسطورة "حمام الذهب" الزمن الماضي، ويسترجع حكايات اليهود في الحارة، أما المستقبل يحضر في افتتاحية الرواية (المشهد الافتتاحي) حيث يوجد سعد داخل غرفة الموت مع ابنته لارا.

_ أما في المشهد الختامي للرواية تذهب هيلين وتخطر بحياتهم للوصول إلى الكنز المخبأ، كما بحث اليهود من قبل عن هيكس سليمان.

_ أشار الروائي إلى تحديد قضية الهوية والدفاع عنها وحمايتها فيما يتعلق بالأقلية اليهودية، والذي يلزم بتحديد الدين أو العرق المشكل للشخصية اليهودية.

_ أشار إلى قضية الترحيل والبؤس والتنكيل الذي مر به اليهود وكذا مختلف المجازر التي ارتكبت في حقهم من قبل الألمان النازيين فكان المدعو "جوهر" شاهدا على أحد الحوادث التي عاشتها الأقلية اليهودية من طرف الألمان في تونس والتميش الذي تعرضوا له من قبل المؤرخين حيث تقول هيلين: "أقرأ أيضا تاريخنا وخاصة ما تعرض له اليهود من اضطهاد قريب وبعيد مما استدعى انتباهي أن المؤرخين في تونس سكتوا عن المحرقة النازية ضد اليهود في حي الحارة ... " ¹⁵.

_ كان موقف الفئة المسلمة اتجاه المعاناة اليهودية هو الوقوف معهم في نكبتهم والتصدي لجرم الألمان .

ومن هذه الأحداث اعتماد الكاتب الرواية وسيلة لتصوير الواقع بغية كشف المستور عنه وبث الوعي في نفوس الأفراد.

● الأمكنة:

احتفى المكان بحضور قوي في رواية حمام الذهب، وقد حمل ملامسات واقعية لها وجود حقيقي في جغرافية المحيط المعيشي، وكان لكل مكان مقصد وأثر على الأقليات العرقية.

-تونس:

تمثل تونس البلد الذي هاجر إليها المستوطنون اليهود بحثاً عن الأمان والاستقرار، لكن حدث ما دون ذلك إذ تعرضوا لكل أنواع القمع والظلم والتنكيل من طرف الألمان النازيون بغية ترحيلهم من تونس، وقد تمسكت أقلية منهم بهذا البلد ورفضوا رفضاً قاطعاً الانتقال منه، ويعدان " هيلين " و "جوهـر" من أفراد تلك الأقلية اليهودية اللذان لم يريدوا التخلي عنها إذا تقول هيلين " ما ذنبي؟ إن كنت تمسكت بوطني وديانتي؟ هل أنا تونسية ويهودية؟¹⁶

-زاوية سيدي محرز والكتاتيب:

نسبة إلى المسمى سيدي محرز الذي كان يعلم القرآن وهو من الأولياء الصالحين، ودفن هناك، حيث كان بمثابة الملاذ الآمن الذي لجأ فيه اليهود هرباً من ملاحقة الألمان النازيين وتقر هيلين أنها بقيت هناك ثلاثة أيام بلياليها والذي تعده رمز العطف والرحمة. - أما الكتاتيب التي كانت مكان لتلقين الأطفال الصغار القرآن الكريم فقد اتخذتها الأقلية اليهودية مقراً وملجأ لهم وهذا لتوطيد العلاقة بين أطفالهم وبين أطفال المسلمين.

-حي لوبانير وميناء فيوكس:

يقع حي لوبانير في مدينة مرسيليا الفرنسية على سفح تل فوق ميناء فيوكس، ويعد المركز التاريخي والثقافي في مرسيليا وكان المقر الذي ضم الأقلية اليهودية بعد الترحيل، حيث أن هيلين تستذكر المعاناة والظلم الذي مورس في حق أهلها وترحيلهم هناك، وبالتالي يظل حي لوبانير وميناء فيوكس ذكرى موجعة للأقليات اليهودية.

-الحمام (حمام الذهب):

يقع حمام الذهب بالمدينة العتيقة بتونس بجوار جامع سيدي محرز، ويعتبر أقدم الحمامات هناك وسمي ب"بلاع الصبايا"؛ فهو مكان متعلق بتاريخ اليهود في تونس، فقد دفن اليهود كنوزهم وذهبهم فيه حين تعرضوا للتنكيل والتهجير، وهذا ما نقلته "هيلين" عن حديث والدتها "شيرا" حول الحمام والكنز الدفين، وأن النساء اليهوديات يخفين مجوهراتهم وكل الوثائق المهمة فيه خشية السرقة.

الخاتمة:

وفي نهاية هذه الورقة البحثية يمكن استخلاص جملة من النتائج:

- تعاظمت الرواية هيمنتها على الأجناس الأدبية الأخرى من خلال كسر الطابوهات، وكونها صوت المنبوذين والمسحوقين، وذلك بتناول موضوع الأقلية اليهودية في المتن الروائي، من خلال اسنادها لصفات إيجابية ومميزات لتلك الأقلية اليهودية، وملامسة قضية معاشتها مع الأفراد المسلمين وانشاء علاقات صداقة وزواج، وقبول فكرة تعدد الأديان.
- سعى الروائي محمد عيسى المؤدب إلى إبراز إشكالية تحديد الهوية في قضية الترحيل القسري الذي تعرضت له الأقلية اليهودية ظلما في تونس من طرف الألمان النازيين.
- تعمل الرواية على أسطرة التاريخ من خلال التشبث بحكايات الأقلية اليهودية وثرواتهم الراسخة في ذاكرة المجتمع الحية والمتوارثة، وقدمت لهم ولتاريخهم المنسي والمتجاهل ردا للاعتبار ضاربا من أعماق الزمن.
- تنقل الراوي بين الماضي والحاضر ببراعة وجمع بين الخرافة والواقع بذكاء، ونجح في رسم معالم معظم الشخصيات، والأحداث، وتنقل في أمكنة كثيرة، كشفت في طياتها قبح تونس وجمالها، كأوكار المدينة الخفية وجوامعها وأحيائها الشعبية ومقاهيها وكنائسها.

7. مراجع البحث وإحالاته :

¹- بيل أشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة) تر: شهرت العالم، ط1، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، 2006، ص 16

²- " لعل سعادة، أدب الهامش نغمة الغناء وأخرى للبكاء مقال منشور في ندوات المخبر www.labreception.net فيفري 2011 \.

- ³- حسين بحراوي، أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركزية، مجلة علامات، مجلة ثقافية محكمة، العدد 18 سنة 2002 ص 09، 10.
- ⁴- صلاح فضل وآخرون، أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، ط1 تح: خالد الجير، دار الفارس، عمان، الأردن، 2010 م، ص 8.
- ⁵- ناظم عبد الواحد الجاسور وآخرون، موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية (بيروت) دار النهضة العربية ط 2008، ص 114.
- ⁶- خيرة وفيقي، تأثير المسألة الكردية على الاستقرار الإقليمي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية والعملة، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2004، 2005 ص 09.
- ⁷- جيل دولوز وفيليكس أغواتري، كافكا من أجل أدب أقل، تر: حسين عجة، دار سطور، ط1، 2018، ص 45.
- ⁸- خيرة وفيقي، تأثير المسألة الكردية على الاستقرار الإقليمي ص 13.
- ⁹- هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب، قراءة سوسيولوجية، ط1، دار رؤية للنشر و التوزيع، 2015 ص 13.
- ¹⁰- المرجع نفسه ص 19.
- ¹¹- محمد ديب، محاضرات أدب الهامش، دار الباحث، برج بوعريش، الجزائر، ط1، 2022 ص 31.
- ¹²- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، ط2، 2000، ص 26.
- ¹³- محمد عيسى المؤدب، حمام الذهب، دار مسكياتي للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2019 ص 36.
- ¹⁴- المرجع نفسه ص 77.
- ¹⁵- المرجع نفسه ص 168.
- ¹⁶- محمد عيسى المؤدب، رواية حمام الذهب ص 31.
- قائمة مصادر ومراجع البحث:
- 1- بيل أشكروفت وآخرون، الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة) تر: شهرت العالم، ط1، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، 2006م.
- 2- جيل دولوز و فيليكس أغواتري، كافكا من أجل أدب أقل، تر: حسين عجة، دار سطور، ط1، 2018م.
- 3- جاك دريدا، الكتابة والاختلاف، تر: كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، ط2، 2000.
- 4- حسين بحراوي، أدب محمد شكري من الهامشية إلى المركزية، مجلة علامات، مجلة ثقافية محكمة، العدد 18 سنة 2002.
- 5- خيرة وفيقي، تأثير المسألة الكردية على الاستقرار الإقليمي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية والعلاقات الدولية والعملة، جامعة قسنطينة، الجزائر، 2004، 2005 م.

- 6- صلاح فضل وآخرون، أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير، ط1 تح: خالد الجير، دار الفارس، عمان، الأردن، 2010 م.
- 7- " لعل سعادة؛ أدب الهامش نغمة الغناء وأخرى للبكاء مقال منشور في ندوات المخبر www.labreception.net فيفري 2011 م.
- 8- محمد دبيح، محاضرات أدب الهامش، دار الباحث، برج بوعرييج، الجزائر، ط1، 2022 م.
- 9- محمد عيسى المؤدب، حمام الذهب، دارمسكرياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2019 م.
- 10- ناظم عبد الواحد الجاسور وآخرون، موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية، (بيروت) دار النهضة العربية، ط1 2008 م.
- 11- هويدا صالح، الهامش الاجتماعي في الأدب، قراءة سوسيوقافية، ط1، دار رؤية للنشر والتوزيع، 2015 م.